تربيـة المواطـن الحـــر
في كتاب ايميل لجان جاك روسو

محمد الخماسي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
القيروان

ليس كتاب «ايميل» لجان جاك روسو مصنفا في البيداغوجيا (1)، يهتمّ بدقائق المناهج والطرق التربويّة. انّه كتاب في فلسفة التربية همّه الاول وضع المبادئ العامّة والقواعد الاساسية في التربية. لذلك يجدر بنا ادماجه في فلسفة روسو عامة وفي الجانب السياسى منها بوجه الخصوص (2) ذلك لان كتاب «ايميل» بما أنه لم يهتم بفنون التربية وتقنياتها فيصير كتابا في تكنولوجيا التربية، قد رسم لنفسه هدفا آخر يتمثّل في وضع الخطوط العريضة لفلسفة تربويّة غايتها الاولى والقصوى «تربية الانسان، الذي سوف يؤسس الميثاق الاجتماعي ومجتمع العقد الاجتماعي» ويعيش فيه. ألا وهو الانسان الحر.

يشترك كتاب «اميل» اذن مع «العقد» في الغاية ألا وهي تأسيس مجتمع عقلاني تحترم فيه «الطبيعة» الانسانية. الا أن الكتابين يختلفان في الحقل الذي يقع فيه تحقيق هذه الغاية. أمّا «العقد الاجتماعي» فهو يهتمّ بالحقل الجماعي : تأسيس الجسد السياسي الاجتماعي التعاقدي. وأمّا «اميل» فهو يعتني بانجاز هذا الهدف في المستوى الفردي :تربية الانسان / الفرد المؤهل وجدانيّا واخلاقيا ومعرفيّا وسياسيّاَ لتحقيق مشروع «العقد الاجتماعي» في المستوى الجماعي (3). هذا ما يجعل من فلسفة التربية عند روسو نظرية في سياسة التربية أي نظرية في سياسة الفرد الذي سوف يكون قادرا على تحقيق مشروع المجتمع / الدولة المستقبليّة.

لكن المتمعن في هذه السياسة التربويّة لا يسعه الا أن يلاحظ تناقضا مع مشروعها الرئيسي. اذ أن طرائق التربية وأساليبيها في كتاب «اميل» تبدو متناقضة مع غاية العقد الاجتماعي

الرئيسيّة.بل أنّه بامكاننا القول ان هذه السياسة التربويّة قد تؤدي حتما - ان هي اعتمدت في حقل الفعل التربوي كأسس فلسفيّة لتكنولوجيا تربويّة - الى نقيض مشروع العقد الاجتماعي الذي لم يغفل روسو على تذكيرنا بخطوطه العريضة في الكتاب الخامس من «ايميل» وكأنه يريد منّا ألاّ ننسى غاية مشروعه الفلسفي ككل وهدفه الأول والاخير (4).

ان القضايا التي يعالجها كتاب «ايميل» تتجاوزه الى غيره من كتب روسو. فالمسألة البيداغوجيّة متبطة جدا بالمسألة الفلسفيّة والمسألة السياسيّة. حتى ان المؤلف يجمع في تقييمه لمؤلفاته بين «ايميل» والخطابين الاولين اذ يكتب الى ل . مالربو قوله : «انّ هذا الخطاب الأول والخطاب في التفاوت والمصنف في التربية هي مؤلفات لا تنفصل عن بعضها وهي تشكل معا كلا لا يتجزأ» (5) انها تنطلق جميعا من مقولة فلسفيّة واحدة وهي البحث عن خصائص الانسان ومميزاته التي كانت له في حالة الطبيعة. تلك الصفات «الطيّبة» التي دنستها الحياة الاجتماعيّة، لتحاول اعادة الانسان الاجتماعي الى طبعه والى طيبته الاولى الفطرية، داخل المجتمع لانه قد أضحى مستحيلا تماما اعادة الانسان الى بدائيته الأولى. ان هذه العملية أي «الاعادة» أو «العودة» سوف تحصل بفضل التربية أي بفضل كتاب «ايميل». فإلى أي حد يمكن القول بأن «ايميل» قد نجح فيما كان يصبو اليه مؤلفه ؟

I.الطبيعة الانسانيّة والتربية السلبيّة :

يؤسس روسو فلسفته السياسية والاجتماعية والتربويّة على فرضية «حالة الطبيعة». لكنه لن يقع في أخطاء غيره من الفلاسفة الذين لما كانوا يتحدثون عن الانسان المتوحش كانوا في الحقيقة يصورورن الانسان المدني» (6). فقد كان تصور هوبز لحالة الطبيعة / الحرب انعكاسا للحرب الاهلية التي عرفتها انقلترا في القرن السابع عشر. أمّا روسو - تجنبا لعملية انعكاس الواقع في التصور الفكري - فسينزع عن الانسان كل صفاته الاجتماعيّة الانسانية حتى يتمكّن من الوصول الى «جوهر» خالص ونقي من كل مقومات الاجتماع والعمران. ليس انسان الطبيعة في فلسفة روسو سوى «تصورا» أو «مفهوما» خالصا اكتشفه جدلا وتوصل إليه بسلسلة من الفرضيات المنطقية الموضوعة، وليس انطلاقا من واقع تاريخي بدئي. لقد نزع عنه كلّ ما آكتسبه عبر تاريخه الواقعي، لينقيه من نفس الحضارة ويعصمه منه (7).

يوجد انسان الطبيعة هذا خارج التاريخ وخارج الزمان وخارج المجتمع. يوجد وحيدا، تقدم له الطبيعة الخارجية من

الخيرات ما يكفيه للعيش والبقاء في حالة «اشباع كاملة» لحاجياته الطبيعية. فلا حاجة لهذا الانسان بالعمل أو بالملكية أو ببقية المؤسسات الاجتماعيّة الاخرى. انّه انسان قريب جدا من الحيوان لكنه «حرّ» وحريته هي ماهيته. الا أن الطبيعة سوف «تتخلّى» عن الانسان وذلك لانها سوف تشح عليه بخيراتها. ان الكوارث الطبيعية من زلازل وأعاصير وغيرها سوف تتلف من الطبيعة خيراتها، تلك التي كانت تحقّق اكتفاء الانسان. الشيء الذي سوف يفرض على «افراد » النوع البشري المتفرقين أن يتجمعوا حول الاماكن التي توجد فيها وسائل العيش. وبحكم قلّة هذه الوسائل سوف تهزّ، هذا «التجمع الاضطراري» موجة من العنف الناجم عن تنافس جميع الافراد على وسائل العيش لاحتكارها. ان هذه الحالة تشبه حالة حرب جماعية شاملة مآلها التدمير الشامل للنوع البشري. الا أن غريزة حب البقاء سوف تجعل البشر أمام خيار لا مفرّ منه وهو اقامة الميثاق الاجتماعي وتأسيسه على التعاقد.

لا بد لكلّ فرد أن يتنازل عن حريته الطبيعية وعن قوته لفائدة قوة جديدة تفوق كل القوى الفردية هي «القوة العامة» التي ستتكفّل بوضع كلّ القوانين والقيم والمؤسسات التي يحتاج اليها «المواطن» الجديد. لكن الانسان الذي عاش تاريخه على التشرد فالتنافس فالحرب أي ذلك الانسان «المجرد» لن يتمكّن تلقائيّا من التنازل عن حريته أي عن ماهيته دون أن يفقدها. ان تحقيق معادلة العقد الاجتماعي تلك المعادلة الصعبة : «تنازل عن الحرية لتحقيق الحرية» يحتاج الى تربية الانسان تربية خاصة. تربية جديدة. تختلف في جوهرها وفي طرائفها عن كلّ أنماط التربية التي يتلقاها الانسان -التاريخي- الاجتماعي. لذلك فإنّ أول مبدإ في التربية هو مبدأ «سلبي» خالق لانسان ايجابي.

- II - التربية السلبيّة :

يتميّز كتاب «ايميل» بوضعه لمبدأ جديد في التربية لم يعتمد من قبل فقد اهتم الكتاب الاول والكتاب الثاني من «ايميل» برفض كلّ الطرق التربويّة المعتمدة قديما لان هذه الطرق تريد أن تصنع من الطفل كهلا قبل حلول الأوان فتلقنه معارف وقيما صالحة للكهل. ونقصد بحلول الاوان، حلول السن المناسبة طبيعيا لتعليم شيء معيّن. ان الطبيعة الانسانيّة هي التي تحدد هذه السن المناسبة أو قل انّه يجب على المربي تحديدها انطلاقا من الطبيعة الانسانية. فالطفولة تمثّل مرحلة من مراحل هذه الطبيعة تعقبها المراهقة مثلا. ذلك ما يملى على المربي اتباع أسلوب «تدريجي» في تربية الطفل بمعنى أنّه من الضروري أن يقدّر مراحل تطور الطفل

(المراحل الجسديّة فالوجدانيّة فالذهنية) ليعلمه في كلّ مرحلة ما يناسبها من العادات أو من القيم أو من المعارف (8). تقف اذن بيداغوجيا التربية السلبية ضد كلّ الاساليب التربويّة التي تعمد الى حشو الدماغ الانساني، منذ نعومه أظفار الاطفال بشتى العلوم والخرافات والنظريات والقيم الاخلاقية والدينية. ويمثل هذا الاسلوب الجديد بديلا تربويّا هو في الآن نفسه مطلبا ملحا يتمنى تحقيقه كلّ مربي سئم حشو أدمغة ناشئة باللغات : اللاتينية والفرنسية وبالعلوم : كالتاريخ والجغرافيا وغيرهما من سائر العلوم التي يعسر على الطفل استيعابها في سن مبكرة. لكن أحدا لم يجرء في القرن XVIII على الاصداع بهذه الحقائق وبالدفاع على هذه المطالب، لذلك أحدث كتاب الإ ميل ضجة اثر نشره للجرأة التي كشف بها عن المطلوب والمسكوت عنه في آن واحد (9).

أما التربية السلبية فإنّ لها دلالة خاصة عند روسو الذي يعرفها في رسالة بعث بها الى كرستوف دى بومون يقول فيها :

«اذا كان الانسان طيبا بطبيعته، واعتقد انني بينت ذلك، وبالتالي اذا كان الانسان باقيا كذلك ما لم تفسده عوامل خارجة عنه، واذا كان البشر أشرارا، وهذا ما علمته عنهم منهم، يكون شرهم اذن آتيا من خارج طبيعتهم : اغلقوا اذن المنافذ على الرذيلة يبقى القلب الانساني دائما طبيا، اني أؤسس على هذا المبدأ أسلوب التربية السلبية وهو أفضل أسلوب، بل قل انه الاسلوب الوحيد الصالح، وإنّي أبين كيف تتبع كلّ تربية ايجابية كما يقع تطبيقها طريقا مناقضا تماما لهدفها، كما انّي أثبت أيضا كيف انه من الممكن ان نصل الى نفس الغاية باتباع النهج الذي وضعته.

اسمي تربية ايجابية تلك التي تطمح الى تكوين الفكر قبل السن المناسبة لذلك، وتلك التي تعطي للطفل معرفة بواجبات هي في الحقيقة واجبات الكهول وأسمي تربية سلبية تلك التي تنزع إلى تنمية الاعضاء التي هي وسائل معارفنا قبل أن تحاول اعطاءنا هذه المعارف وهي التربية التي تهيئ الطفل للتعقل بشحذ حواسه. ليست التربية السلبية عاطلة عن الفعل : انها لا تعلم الفضيلة ولكنها تقي من الرذيلة . انها أيضا لا تلقن الحقيقة بل انها تحفظ من الوقوع في الخطأ، انها تهيئ الطفل الى كسب كلّ ما سيحمله الى الحق عندما يكون مستعدا لفهمه وتهيئة لفعل الخير عندما يكون مستعدا لحب الخير (10).إذن تتأسس التربية السلبية على مبدإ تعليم تجريبي، بحيث يعلم المربي تلميذه انطلاقا من التجربة الحياتية اليومية، وذلك باتباع أسلوب تدريجي يحتاج الى وقت طويل، يبدأ بتعليم قواعد النظافة والإنضباط في السلوك، قبل التوجه لتربية الفكر وتكوين العقل. فالطفل لا يقدر على استيعاب الافكار والمفاهيم والحكم على الأشياء كما أنّه لا يملك ذاكرة قوية. لذلك فهو لن يستفيد من تعلم اللغات قبل سنّ الثانية عشر. ولن يحفظ من

الجغرافيا غير أسماء غريبة، ومن التاريخ سوى تواريخ أحداث يجهل أسبابها. لن يستفيد الطفل كذلك من الأساطير. فهو يتقمص شخصيات ابطالها ويتطبع بطباعهم التي ستبعده عن طبيعته. فلنكتفي اذا بتعليمه القراءة والكتابة والرياضة التي تفيد جسمه. تنحصر التربية الأخلاقية في تخليص الطفل من نزواته، دون أن نجرح كبرياءه. ويتم ذلك للمربحين يقنع الطفل انه «هو» الذي يريد أن يتعلم ما كان مربيه بصدده تلقينه.

يبدأ روسو انطلاقا من الكتاب الثالث من «أيميل» في تحديد المحتويات المعرفيّة التي يمكن للطفل أن يتعلمها بين سن الحادية عشر والخامسة عشر فيتعرض للتربية الفكريّة ثمّ الى التربية اليدويّة. ان الطبيعة الانسانيّة زودت الكائن البشري بخاصية حب الاطلاع لذلك يجب استغلال هذه الظاهرة عند الاطفال حتى نعودهم على ملاحظة ما يوجد حولهم. ان أهم رأي يرسخ في ذهن الطفل فيستفيد منه أيما فائدة هو «ألا كتاب له سوى الطبيعة». ويبدأ المربّي في تلقين الطفل أول الصناعات الفكرية التي يروق له تعلمها في هذه السن : الهندسة والموسيقى. لكن يجب على المربي أن يحترز في تعليم الطفل الهندسة فلا يستعمل في هذا التعليم الطرق البرهانية بل يحسن تعليم الطفل الهندسة عن طريق المقارنة بين الاشكال الهندسية. فيجر الطفل الى المقارنة بين المربع والمستطيل أو يوحي له بأن كليهما يتألف من زوايا ثم يتابع هذا التعليم بالسؤال عن نقاط التشابه وغيرها في الأشكال حتى يجعل الطفل يتفطن لها تلقائيا. وينقلب هذا الأخير بفضل الأسلوب الذي يستوحيه روسو من مايوطيقا أفلاطون (محاورة المينون مثلا) إلى معلم يلقن مربيه مبادئ الهندسة بطريق الحدس، معرضا عن مناهج المنطق. يمكن للمربي (بعد بلوغ الطفل سن الحادية عشر) أن يعلمه الجغرافيا، فيوجه إنتباهه إلى الطبيعة، بدلا عن الخرائط والكتب : فالإطلاع المباشر على موضوع الدراسة أنجع من كلّ الأدوات البيداغوجية الأخرى، في شحذ احساس المتعلم بالأشياء. (11)

1 - مبدأ التربية الايجابية :

تعتمد التربية الايجابية، أي التربية التي تلقن الطفل المعارف على مبدأ نفعي بحيث لا نتسرع في حشو دماغ الطفل بما نريد أن نعلمه من معارف بل يجب علينا أن نكتفي بتلقينه ما يميل هو الى تعلمه تلقائيا. فالطفل لا يولى عناية الا للمسائل التي يرغب في معرفتها. وعليه قرر روسو إبعاد إيميل عن «الكتب». فمكتبته تضمّ كتابا واحدا، هو قصة «روبنس كروزوي» التي

تصور مثل «حي بن يقضان» الإنسان في حالة العزلة الطبيعية، التي افترضها روسو في «العقد الاجتماعي» وفي «الخطاب في أصل اللامساواة.

وتتلخّص قيمة قصة روبسن في أنها تصور للطفل الانسان في صراعه الحياتي، ذلك الصّراع الذي يقوم بين قطبي وجوده : الطبيعة وهي مجال الضرورة. والارادة وهي مجال الحرية. بذلك يمكن تتقويم سلوك الطفل الذي يصبح قادرا على العيش حسب ما تقتضيه الطبيعة من جهة ووفق ما تمليه عليه الحرية من شروط من جهة أخرى. الضرورة تملي على الانسان أن يعمل ليضمن وسائل عيشه. وأما الارادة فهي تمثّل المبدأ الذي يحركه ليختار العمل الذي يروق له ليضمن به حياته. يتعلّم الطفل من هذه المرحلة بعض قواعد الحياة الاجتماعيّة حتى يفهم ضرورة اتخاذ عمل لنفسه، ويرى روسو في هذا الباب أن الصنائع اليدويّة والفنون المتداولة لدى العوام هي أهم من غيرها في تربية الاطفال وتعليمهم. والافضل هو أن يختار الطفل صناعة يدويّة، لكن اذا كان ميّالا الى الصنائع الفكريّة فلنعلمه ما يتعلّق بها من الصنائع اليدويّة، مثل أن يتعلم صناعة الوراقة اذا احب الكتابة، وصناعة المجهر اذا أحب الفلك لكن تبقى الفلاحة والحدادة والبناء أنبل الفنون الانسانية. وسوف يختار إميل صناعة النجارة حين يقتنع بضرورة العمل. فهي صناعة ذات خصال جسمية وأخلاقية وذوقيّة. فهي صناعة شريفة وضرورية وذات فائدة. ويمكن تعاطيها في البيت. وهي تحرك الجسم وتروضه. كما أنها تحتاج الى براعة ودقّة. وهي تنتج مصنوعات لا تخلو من جمال وذوق ورونق.

2 - نظرية المعرفة :

يتميّز النّوع البشري عن بقية الكائنات بـ«التفكير» الا أن الفكر ينشأ لدى الطفل بصورة تدريجيّة وقد أتاحت كل التجارب والملاحظات السابقة لإيميل أن يكون ملكة التفكير لديه فأصبح قادارا على الحكم على الاشياء. وينشأ «الحكم» عن سلسلة من الاحاسيس منها البسيط ومنها المعقّد. أمّا الاحاسيس البسيطة فهي تمكن من الاحكام السلبيّة وأما الاحاسيس المعقّدة وهي أفكار بسيطة وقع استخلاصها من مقارنة الاحاسيس البسيطة فهي التي تمكّن من الوصول الى الاحكام النشيطة. وهي طبعا أصل الادراك. وسوف يتعرض روسو الى قضية المعرفة باكثر دقة في «اعترافات كاهن ساقوا». فتراه مذبذبا بين نزعة عقلية وأخرى حسيّة تنتمي في الآخر الى القول بمعرفة حدسية، تدرك الحقيقة باطنيا وليس بالاقيسة العقلية . يقدم روسو مثال العصا المنكسرة في الماء.

ويبين خطأ احكام التجربة : أو احكام العقل المتسرعة والمبنية على التجربة. ليست غاية روسو هنا تعليم الطفل ان العصا تنكسر في الماء، أو لا تنكسر فعلا بل انه يريد أن يعلمه «كيف يعرف» لذلك ترى المربي يوقظ في إميل ملكات الانتباه والاحتراز والتثبت في الحكم.

- IV - الذاتية والغيرية :

يطلعنا الكتاب الثالث من «ايميل» على كيفية تربية الطفل اجتماعيّا حتى نولد عنده الوعي بوجوده الاجتماعي. ان الصداقة هي ما يتولّد لدى الطفل من مشاعر تحمله الى الحياة الاجتماعيّة لكن الصداقة لا تتأسس الا على شعور آخر يسبقها في الظهور وهو شعور ذاتي عند الانسان يتمثّل في حبه لداته. هذا الشعور الأول ينتج حب الطفل لغيره أي لأولئك الذين يسهرون على صحته وعلى راحته ويقومون بتربيته. فالانسان اذن هو حيوان أناني بطبعه. ان حب الذات يولّد لدى الطفل أهواء رقيقة وايجابية تتجسم في تعلقه بمرضعته تعلقا ناجما عن تعوده رؤيتها يتحول الى حب عندما يعي الطفل ان المرضعة تقوم بشؤونه فعليّا وأنّها تحب هذا الواجب. الا ان حب النفس قد يتحول الى كبرياء يولّد أهواء قذرة وحمقاء. تتولّد الصداقة بين الناس بالتدرج حيث تخلق صعوب الحياة وقساوتها الطيبة في الانسان فتجعله يرأف ببني جنسه فاّلانسان عندما يكابد من قساوة الطبيعة الأرين يحظى بالرحمة من الانسان. والشقاء يولّد فينا الرحمة نحو من يشقى ونحو التعيس. أمّا الانسان السعيد فهو لا يشد انتباهنا ولا نحن نعبأ بوجوده. هكذا تتولّد الروابط الاجتماعيّة، فالانسان الشقي يوحي لنا بشقائنا ويذكرنا به. يستخلص روسو من هذه الصفات الانسانيّة قاعدة بيداغوجيّة تساعد المربّي في جعل الطفل الذي يربيه يحب غيره ويرأف بهم ويحب معايشتهم. يجب على هذا المربّي اذن أن يعرّف النوع البشري للطفل من خلال شقاء البشر وليس من خلال سعادة الناس. فالاحسن اذن لخلق الشفقة في قلب الطفل أن نحدثه عن شقاء الغير وعن آلامهم وعن فقرهم حتى يرى الطفل نفسه في غيره فيعطف قلبه ويلين ويتهيأ لخوض الحياة الاجتماعية متسلحا بأحسن ما أعطته الطبيعة للإنسانية، الرحمة : فالانسان يشفق على من كان أتعس منه، وعلى من تحل به مصائب لا يكون هو في مأمن منها. لذلك لن تتجه عنايه الانسان الى غيره الاوقت الكروب. حينها يصبح «الغير» أو «الآخر» محّط انتباه الفرد. تعوض النزعة «الغيرية» فيه نزعة الأنانية وحينئذ يتسنى للمربّى أن يطلع إيميل على الفوارق التي تميّز البشر عن بعضهم البعض : التفاوت في قوة الجسم وفي الثروات وفي الجاه وفي

السلطان، أي باختصار التفاوت الطبيعي والمدني. هنا يحتاج المربّي في شرحه لحقيقة البشر الى مزج السياسة بالاخلاق ليفسر المجتمع بأفراده ويعرف الافراد بالمجتمع وبالاماكن التي يحتلها كلّ فرد في المجتمع.

لا بد اذن لإيميل أن يتعرف هنا على الحالة الطبيعيّة التي كان فيها البشر والتي تتميّز بعدالة فعليّة وواقعيّة بين البشر تمنع استعباد البشر لبعضهم البعض حتى وان كانت هناك فوارق طبيعيّة بين الافراد. ولا بدأن يطلع على خصوصيات الحالة المدنية التي تتميز بعداله قانونية حياتية ، ساهمت أدواتها في تحطيمها. فصارت المصلحة العامة ضحية المصلحة الخاصة. الشيء الذي صيّر «العدالة» مجرد مفهوم. ذلك هو الدرس الذي يبقى للطفل من دراسة التاريخ، التي تكشف النقاب عن أسرار النفس الانسانية وهي في خضم الحياة. لكن هذه الدراسة لا تخلو من مخاطر منها ان هذا العلم لا يصور البشر الا في اسوء حالاتهم كالحروب والدمار. وتبعا لذلك تكتفي نظرية التربية عند روسو بتعليم «التاريخ القديم»، والوقوف على السير الشخصية، التي تطلع الدارس على حقيقة النفس البشرية، اذ أنها تكشف لنا عظماء البشر في أبسط المواقف، وليس أثناء الحروب والبطولات التي يضخمها الخطاب السياسي الرسمي.

والجدير بالملاحظة هو «المراقبة» الصارمة التي يضعها روسو على كل المحتويات التي يريد من المربي أن ينقلها الى الطفل / المواطن وذلك الى حدود الخامسة عشر من العمر. انها «مراقبة» يواجه بها روسو كل «النقولة» الثقافية في الكتب وفي مناهج التعليم والمعرفة. وكأنه يخاف على مواطن المستقبل من أمر ما. بل ان روسو يخاف فعلا على انسان الحرية التعاقديّة من كل ما يربطه بماضيه الثقافي وبتاريخ الانسان الغابر لان المجتمع هو الذي يدنس الانسان. ولا يكون ذلك الا عبر نمط العيش وبفضل أسلوب التربية. هنا يظهر تناقض روسو في ارادته خلق روينسن كروزوي اجتماعيّا يكاد يكون أميّا. لا ندري كيف نكلفه بمسؤولية الميثاق السياسي الاجتماعي، ومسؤولية خلق المجتمع الحر.

اعترافات كاهن سافوا :

يرفض مبدأ التربية السلبية حشو أدمغة الأطفال بشتى العلوم حتى لا ينتهي الى خلق «علماء مراهقين» ينقصهم النضج النفسي الضروري لبناء «المجتمع المدني» المنشود ولن يقدر على التخلّي عن الحرية الطبيعيّة الا ليقع في العبوديّة. ولن يفلح في استرداد تلك الحرية بفضل الميثاق، لذلك كان نقد روسو شديدا

لأساليب التربويّة البالية وهو نقد لم ينفرد في القيام به (12) ولنفس السبب أيضا لم تغب «التربية السياسية» ولو للحظة واحدة من كتاب «ايميل».

ان اعترافات كاهن سافو (كـIV) أتت كاعترافات الانسان الذي يدين المجتمع، مجتمع ذلك العصر فيتهمه بالظلم والجور السياسيين وباللامساواة والاستغلال والاضطهاد في المستوى الاجتماعي وبالتعصب الديني المقيت. لذلك فإن كاهن سافوا هو الناطقباسم «الانسان المجرد» الذي يعرف ظلم المجتمع لانه في نفس الوقت انسان ذلك المجتمع. ذلك الانسان الذي ما انفك يحلم بحياة أفضل وبحرية حقيقة. ان اعترافات كاهن سافوا هي اعترافات روسو نفسه ذلك الانسان الثائر على المجتمع من داخل المجتمع وذلك بقتل المجتمع في الفرد / الانسان الذي صوره في حالة الطبيعة. فالاعترافات في جوهرها اعترافات «كاملة» : انها تمثّل بيان روسو الفلسفي وبيانه السياسي وبيانه التربوي في نفس الوقت. أما شخص الكاهن فهو يمثّل أحسن همزة وصل دراميّة مع هموم القرن الثامن عشر. وذلك لان اعترافات كاهن سافوا هي اعترافات بخطيئته - فشله في الحياة - واعتراف من رجل دين بقصور الفكر الديني المتعصب على توحيد البشر. ومن ثم فان هذه الاعترافات ربما تكون الى جانب رواية ديدرو (Diderot)، «جاك الجبري سيّده» من أرقى ما كتب في نقد التعقصّب الديني في القرن الثامن عشر. سيتحدث كاهن سافوا الى تلميذه عن الحقيقة وعن الكون وعن الله حتى يتخلص الى تلقينه مبدأ في التربية الدينيّة هو مبدأ روسو نفسه. يقول هذا المبدأ ان أحسن تربية دينيّة هي تلك التي تمكّن المُواطن (التلميذ / الطفل) من «اختيار» الدين الذي يريد التدين به. ونجد طبعا في هذا امبدا مبدا أسمس منه في المنطق الداخلي لفلسفة روسو وهو «الحرية». فما القول بحق الفرد في «اختيار» دينه سوى تكريس لمبدا الحرية التي تمثّل ماهية الانسان وكنف وحقيقته الاولى.

لو نزعنا الاحداث السيريّة التي استهل بها كاهن سافوا اعترافاته لوجدناه في مرحلة «الشك» في كلّ ما يوجد حوله. وهذا يعني ان روسو يتبنّى المنهج الفلسفي الديكارتي على الاقل في أصوله ومبادئه الاولى. فيبدأ كاهن سافوا بابراز ضرورة القيام بتجربة الشك في بداية كلّ عملية بناء للمعرفة. وإذا اعتبرنا تجربة الشك المنهجي تبدأ بالتخلّص من كلّ موروث معرفي، واذا اعتبرنا ذلك الفعل «سالبا» بالمقارنة مع فعل تأسيس المعرفة وبنائها بناء ايجابيا، نستنتج ان بنية نظرية المعرفة عند روسو لها نفس بنية نظريته في التربية. فهما تتكونان من مرحلتين

الاولى سلبيّة تتميز بالتخلص من كلّ الوسائل التربويّة القديمة (التربية السلبية)، بينما تتميز في المجال المعرفي بتبني منهج الشك والتخلص من الموروث الثقافي. أمّا المرحلة الإجابية فهي بينما تتجلى في مستوى التربية في بداية التلقين التدريجي للصنائع وللغه بينما تتجلى في مستوى نظرية المعرفة في بناء كلّ المعارف على الحدس الباطني، لكن تبني روسو للمنهج الديكارتي ليس تبنيا كاملا، ذلك لان الشك نفسه يمثّل عند روسو تجربة تبعث في النفس «القلق» و«الاضطراب». فهي وان كانت تجربة ضروريّة للتخلّص من «المجتمع» في النفس، من المجتمع كفكرة وكتصور وكمجموعة من العادات والمفاهيم والسلوكات، الا انه كتجربة فلسفيّة ليست تجربة «راديكاليّة» لانها لم تقطع ولا تقطع حبال الوصل مع المجتمع المدنس للطبيعة الانسانيّة. نظرية نشأت داخل الحياة الاجتماعيّة التي لم يسبقها ولم يؤسسها الميثاق الاجتماعي المحرر للإنسان.

ولم يجد روسو «اليقين» في الدين ولا في العلم بل وجده في باطن نفسه حيث وجد الراحة النفسيّة والعقليّة والروحيّة. ينبع اليقين اذن وينبجر من الحدس الباطني الذي يعلم الانسان، أول ما يعلمه أنه موجود ذو حاواس هي أجهزة تعرّفه على العالم الخارجي. لا يحتاج الحدس الى برهان يكون دليلا على صحّة وجوده. انّه يكتفي بنفسه كدليل ومدلول عليه. ليس الانسان بالنسبة لروسو ذلك الامتداد أو التمدد étendue الذي يفكر ، بل انه ذلك الاحساس الباطني وذلك الشعور الحميمي بالوجود وبالقدرة على الاحساس وعلى الشعور بما يوجد خارج الذات من أشياء متنوعة لا غرابة اذن في أن يستمد وجود العالم من هذا الدليل الحدسي / الحسي. فالأشياء هي التي تؤثّر في حواسنا وهي اذن علل مشاعرنا واحساساتنا التي تعج بها أنفسنا. ان الاشياء اَلتي تحرك فينا الشعور والاحساس لا بد أن تكون موجودة. وبما أن تماما. ان الوجود يسرى اذن في منظور روسو في الذات / النفس/ العقل وفي المادة. أمّا المادة فهي اذن كل الاشياء الخارجيّة عن الذات والمؤثّرة فيها. وما كلّ الاجسام والاجساد التي للكائنات سوى أجزاء لهذه المادة. وأمّا العقل فهو الفكر الناجم عن الاحاسيس التي تنشأ عن فعل المادة في النفس. ان العقل هو الذي يولد الافكار بمناسبة وقوع الاحاسيس في النفس وحدوثها فيها. ان الاحساس هو ادراك يتولّد بفضل الحواس امّا الفكر فهي احكام يصدرها العقل بالمقارنة التي يقوم بها بين هذه الأحاسيس. هكذا يكون الفكر الذي يولد الافكار (التفكير) هو حركة وفعل يسيطر عليهما الانسان أو يقع في الخطر فيهما. أمّا الاحاسيس التي ينطبع بها هذا الانسان فلا

حول ولا قدرة له عليها. ان الانسان اذا هو كائن حسن وعقل - ويؤكد ذلك روسو قائلا : «ليست إذا مجرد كائن حسّ سلبي : بل إنني كائن ناشط وعاقل (13)». ورغم كلّ ما تقوله الفلسفة عني فإنني كائن يتشرف بأنه يفكّر. اني أعرف فقط ان الحقيقة توجد في الاشياء ذاتها وليس في العقل الذي يحكم عليها. ولذلك فإنني أقترب من الحقيقة أكثر، بقدر ما أتخلّى عن آرائي واحكامي الذاتية. هكذا فإنّ العقل نفسه يؤكّد قاعدتي التي تقول بأنّ أثق في الشعور أكثر مما أثق في العقل. وبعد أن أكون قد تأكدت كذلك من ذاتي أبدأ في النظر خارج ذاتي وأتأمل نفسي بشيء من الارتجاف وأنا تائه في هذا الكون الشاسع وكأنني غارق في هذا العدد الهائل من الكائنات، دون أن أعرف شيئا عن حقيقتها في علائقها ببعضها وبالنسبة لي. أدرسها وألاحظها وأول شيء يبدو لي لكي اقارنها من خلاله هو أنا نفسي (14). هكذا نتعرف حسب كاهن سافوا على الكون بمجرد «ملاحظة» وجوده ملاحظة حسية تأسست على يقين حدسي في وجود «الملاحظ». فينكشف لنا الكون رحيبا وكثر لا تنحصر من الكائنات المادية التي تسير وفق مبدا واحد هو العطالة والتي لها (تلك الكائنات المادية طبعا) صفة واحدة هي الحركة.

لا يبرهن روسو على كلّ هذه الحقائق بل يعتمد في افرازاها على حدس باطني تنبجس منه هذه الحقائق تدريجيّا الى أن تؤدي كلها الى ظهور فكرة الله الذي خلق الوجود بل الى الاله الذي يثل عين الوجود. فالله هو اذن علّة الحركة التي تطرأ على الظواهر المادية. وهو الارادة التي تحرك الكون وتحيي الطبيعة. لا يعتمد روسو البيان البرهاني في الدلالة على صحة هذه لاراء.انه يكتفي فقط بتقديمها على لسان كاهن، لانها تقوم من وجهة نظر روسو، وفي البناء المنطقي لخطابه الفلسفي مقام «العقيدة». انها العقيدة الوحيدة، والمعتقد الأوحد الذي تنطوي عليه فلسفة روسو : الله. أمّا فيما عدا ذلك من العقائد فإنّ روسو - على غرار جل فلاسفة الانوار - يقف منها موقفا نقديّا جذريّا مناهضا تماما للخطاب الفلسفي الذي تميّز به فلاسفة القرن السابع عشر فيما يتعلّق بمواقفهم من الدين .

لم يبق لكاهن سافوا الا أن يطلع ايميل على مكانة الانسان في هذا الوجود الهائل. ان الانسان هو رئيس كلّ الكائنات وتأتيه هذه الصفة من جهة انه ذو ارادة وقدرة وطيبة. فهو لكأنه إله ينقصه فقط فعل الخلق للكون أو لكأنه نصف اله . ان الانسان طيب وهذه طبيعته. وهو قادر على الفعل كما يتجلّى ذلك باستمرار في حياته اليوميّة. وهو كذلك مريد. وارادته هذه تنزع نحو الخير. الا أن

المجتمع حط هذا الاله أو نصف الاله الى مصاف لا يليق بجوهره فجعل منه أسفل كائن في الوجود. ونزع عن طيبته فدنسه ونزع عنه قوته فدجنه وجعله عبد السلطات السياسيّة والدينية السالبة لكيان الانسان.

ان اعترافات كاهن سافوا وهي أيضا اعترافات بخطيئته confession تفضي الى التخلّص من الخطإ والى تنقية المعترف بخطيئته من كلّ دنس والاستغفار له. لذلك فإنها بمثابة البدء في الرجوع الى تلك الألوهية التي فقدها الإنسان بفعل المجتمع. الا أن هذا الرجوع إلى الأصل لن يكون إلا داخل المجتمع. هذا المجتمع الذي سوف يصبح نظيفا ونقيّا لأنه سوف يعاد تأسيسه على الميثاق الاجتماعي. إنه «بعث» الإنسان الحقيقي الحر داخل المجتمع المدني.

ان فلسفة التربية عند روسو هي فلسفة «بعث الانسان الحر» في المجتمع. لذلك فهي فلسفة طوباوية لانها تتصل بغاية يبدو تحقيقها مستحيلا : خلق الحرية داخل اطار لا يمكن أن تنشأ فيه. لكن الهدف يصبح ممكنا في منظور روسو لان بعث الانسان الحر مرتبط ببعث المجتمع الحر الجديد. فالميثاق الاجتماعي هو مولد مجتمع جديد أيضا وليس فقط مولد انسان جديد. انّ تربية ايميل هي تربية صالحة للنوع البشري بأسره، ذلك لانها تتأسس على جوهر الطبيعة الانسانيّة ولا تناقضها اطلاقا. انها تربية التأليف (الإلف) بين الطبيعة البشرية والمجتمع وذلك باصلاح المجتمع بالحدّ من سلبياته وبتحرير الفرد بالحدّ من حريته الاولى بقوانين يضعها الانسان نفسه.

يعلم كاهن سافوا الانسان - التلميذ - وهو يروي له سيرته دون أن يلقنه نظرية أو فلسفة، انّه يطلب منه فقط أن يصغي اليه علّ الاراء التي ينقلها اليه تبعث في نفسه الشك فتدفعه الى أن يفكّر. يوجد في الاعترافات تحول في الاسلوب التربوي المعتمد. فلأول مرة لا يتحدث روسو عن التلقين وعن مراقبة ادوات التربية (كتاب واحد في مكتبة ايميل - قصة روبنسن) وعلى المواد التي يتعلمها الطفل أو على الصناعة اليدويّة التي يجب عليه أن يمارسها. لاول مرة يسمح روسو لإيميل (التلميذ) بالتفكير. ذلك لان كاهن سافوا (روسو) لا يملك يقينا في المسائل التي تتعرض اليها الاعترافات في جزئها الاخير : الاخلاق والدين. وهي مسائل تهيءايميل لغوص في مسائل العقد الاجتماعي (كـ V) أي في مسائل الحياة السياسية.

خلقت اطبيعة الانسان حرّا وطيبا. لكن المجتمع انحرف بهذه الصفات الى ضدها فجعل من الانسان علّة الشرور كلها. لذلك فإنّ

أي تربية اخلاقيّة لا بد أن تعلم التلميذ هذه الحقيقة أولا ثمّ تتجه الى ضميره لتوقضه. فهو الطريق الوحيد الى النفس، وطاعته تؤدي الى طاعة «الخير» الراسخ في طبيعة الانسان. ان التربية الاخلاقية هي اذا عودة الى عصر الانسانية الذهبي -عصر الحريةالطبيعية - مع نقل هذا المجال الى الحقل الاجتماعي المستحدث بفضل الميثاق الاجتماعي. ان التربية مصالحة الانسان المدني مع طبيعته اي مصالحة الانسان مع ذاته. لان الانسان لا يمكن أن يكون كائنا طبيعيا فقط، كما لا يمكن أن يكون كائنا اجتماعيا فقط. فهو في جوهره، طبيعي أي حر وهذا ما لا يتحقق في المجتمع، وهو في جوهره ايضا اجتماعي أي ابن المؤسسات والعمل والقيم وهذا ما لا يوجد في الطبيعة. لذلك ف ن التربية تمثل محاولة لتجاوز هذه النقيضة : خلق الانسان المدني من ذلك الانسان المنعزل الذي القت به الطبيعة في هذا الوجود عبثا. ويمثل «الضمير» المفهوم المركزي في التربية الاخلاقية التي ستفتح افئدتنا على حب الغير، قبل أن نقتنع في الكتاب الخامس من «ايميل» بضرورة التعاقد مع الغير للتعايش داخل المجتمع المدني.

لقد أمدت الطبيعة الانسان بمشاعر فطرية تهيئه للبقاء، بل تساهم - من داخله - في تحريكه نحو البقاء. تتجلى هذه المشاعر في الفرد في حب الذات وفي الخوف من الالم وفي الهلع من الموت وفي الرغبة في رفاهة الحياة. لكن وبما ان الانسان مهيأ بالطبع الى الحياة الاجتماعية أو قل انه ينزع بطبيعته الى ذلك فلا بد أن تكون الطبيعة قد وضعت في النوع البشري مشاعر خاصة (عكس المشاعر الفردية) فطرية تمثل النسيج الطبيعي الذي سوف تتأسس عليه الحياة الاجتماعية هو الضمير الذي يمثل همزة الوصل بين النزوع الفردي نحو مصالح الفرد والنزوع الجماعي نحو المصلحة الجماعية في التعايش، بين الانانية والغيرية. هناك علاقة مزدوجة بين الانسان وذاته : علاقة مع ذاته كفرد وكذرة من ذرّات المجتمع الانانية وعلاقة مع ذاته كعضو في جسد متكامل ومتماسكة أطرافه وعناصره. ان هذه العلاقة هي التي تولد البناء الاخلاقي الاجتماعي الذي ينبجس فيه الضمير، فيمتلئ بحب الخير. لكن هذا الشعور المؤسس للاخلاق والموحّد للبشر يجد في المجتمع الانساني ما يجهضه فيحوله الى ضدّه، أي الى سبب تفرقة بين أفراد النوع البشري، إنه الدين الذي لا يفلح الا في جعل البشر أقواما وأمما وملا وفرقا متناحرة، تنكر الواحدة على الاخرى حقها في الوجود. وقد امتزج الدين بالسياسة وبالمصالح الاقليمية، فمن السخرية حسب روسو أن يعتقد المرء ان الديانات قد تكون مفيدة للبشر. بل انها على العكس من ذلك مصدر نكد الانسان ومصدر الحروب التي

ما انفكت تمزق الانسانية.

ويرى كاهن سافوا من واجبه ان يطلع تلميذه على الدين الحقيقي المركوز في سريرة البشر، حيث يشعر الانسان بصورة فطرية ومن دون أي برهان عقلي بضرورة وجود صانع لهذا الكون الذي يوجد فيه، بدون خطاب. فقد قال الاله للانسان كلّ شيء في باطن النفس من دون لفظ.لا بد اذا من أن يجد الانسان خالقه ويكتشفه حاضرا في ذاته حضورا دائما، لكنه حضور مريح اذ زن الله لا يأمر عباده بالاقتتال باسمه وتحت رايات متناقضة يختفي هو وراءها. لا يقبل روسو ان تلتصق مثل هذه التهمة بذات الاله. وبالتالي فإنّ الدين الطبيعي هو الدين الوحيد القادر على جمع شتأت النوع البشري وتوحيده - كيف لا والفطرة الانسانية واحدة والطبيعة واحدة. ولا يمثل التعصب الديني إلاّعائقا لابد للتربية الجديدة ان تتخطاه، وذلك لتحقق احدى غاياتها وهي تربية المواطن الجديد الذي ينبذ التعصب.

ان تربية المواطن الحر تطمح اذا ومرة اخرى الى مصالحة الانسان مع جوهره المنبت وذاته، وهو ما يتم باصلاح ما أفسده التعصب الديني من فطرة طيبة. لذلك كان من الضروري تجاوز الدين الاجتماعي بتجريد الانسان منه وجعله يكتشف دينه بذاته وفي ذاته دونما أية وساطة ليصل الى مرحلة تأسيس العقد الاجتماعي وهو نظيف من كلّ الشوائب الاجتماعية : الانانية، الظلم، التعصب، التناحر والحرب الجماعية.

تربية «المواطن» الحر والمجتمع الرجالي :

من الغريب أن روسو عندما جرد الانسان من كلّ صفاته الاجتماعية ليخرجه «مفهوما» عاريا من كلّ كسب انساني ثقافي، لم يكمل تجريده بصورة راديكالية. ذلك لانه عندما يبدأ في الكتاب الخامس من «اميل» في الحديث عن المرأة، نجده يقدم خطابا يعكس الخط الايديولوجي العام الذي يحيط بالمرأة في القرن XVIII والذي يضعها في مرتبة دنيا بالمقارنة مع مرتبة الرجل.

اذ لم يبق روسو لصوفي (المرأة) بعد أن انتزع حقها في التربية الفكرية، سوى حق في تربية اخلاقية / جمالية تجعل منها امراة طيبة وحسسة ورقيقة جدا، لها خيال رحب، لا تتفوق بجمال فتان ومع ذلك فهي تشد الانتباه، وهي امراة أنيقة تحسن الرقص والغناء والموسيقى قليلا، ان صوفي هي باختصار البيت ولذلك فهي تتقن الحياكة والطبخ، ولا تخلو طبعا من العيوب فهي مفرطة في النظافة الى حالة «المرض» الذي يجعلها تحجم عن القيام بمهامها المنزلية التي تضطرها الى «لمس الاوساخ». وهي ذات

نزوات متقلبة، ويغنيها اخفاء هذه العيوب طاعتها المفرطة وسرعتها في التماس العذر برقة وتواضع كلما اخطأت.

جعلت المراة حسب روسو لطاعة الرجل لانه يفوقها في كلّ الصفات الاتجابية الطبيعة كقوة الجسم والعقل وكالشجاعة والاقدام والثبات. ولا تتفوق المراة الا بطباع سلبية كضعف البنية الجسمية وكالحياء والخجل وكالرغبات الجامحة بالاضافة الى الرقة، والتأثر السريع بالراي السائد. بذلك يتميز الكتاب الخامس من «اميل» كمصنف في تربية المراة تربية تختلف كليا عن نظرية تربي الرجل الموجودة في الكتب السابقة (I - II - III -IV) من «امل» فلقد اعدت هذه الكتب مع الكتاب V اميل الى الحياة السياسية بينما اكتفى الكتاب V باعداد الفتاة الى البيت. ان الرجل في مجتمع روسو يؤسس العقد الاجتماعي الذي يبرمه مع كلّ الرجال في المجتمع، اما «صوفي» فهي تكتفي بابرام عقد زواجها مع «اميل». وهو عقد يكون الرجل بمقتضاه متفوقا هنا لم يتجاوز روسو اذن «مفهوم العقد الذي يحدث اللامساواة» والذي ما انفك ينقده (Contrat Gérondin) ويضع له بديلا الميثاق الاجتماعي (15).

يجب على «صوفي» ان تتعلم من اميل. الذي لم يقرا الا كتاب «روبنسن»، في حين يوجد بمكتبها تلماك Télémaque و Les comtes faits de Barême(16)، ذلك حتى لا تتفوق عليه ، وتكون امراة عالمة لها معرفة واسعة. يكتفي روسو لطمس كلّ التحركات النسائية في عصره، ولمسحها من نظريته بالقول ان صوفي امراة عاقلة راضية وقنوعة تحب الخير والله وزوجها. «ان صوفي جاهلة لطيفة» (17) بل انها ربيت لان تكون كذلك، اما إميل فقد تضاعفت تربيته بفضل الاسفار مشيا، تلك الاسفار التي ستمكنه، بالاضافة الى التكوين، من الالتقاء بصوفي. ينقل روسو في الكتاب الخامس من اميل، الى شخص اميل حب، هو للاسفار. فيجعله يستفيد منها (اميل) كما استفاد هو جان جاك. فيسقط روسو بذلك على نظريات، الفلسفية شيئا من سيرته الشخصية (18).

ولقد استفاد روسو من الاسفار كثيرا، وسوف يستفيد منها إميل كذلك : ستفتح أمامه فرصة التعرف على الأمم والدول وعلى دواليب السياسة. إنها التربية السياسية، والتي استثنيت منها المرأة لمجرد أنها ستبقى في البيت الذي جعلت له. إنّ السفر متعة وبحث سوف تتحقق بفضله «المصالحة»، بل بداية المصالحة بين الانسان وجوهره الحرّ. بين مواطن المجتمع المستقبلي والمنشود وإنسان الطبيعة الحر ففي السفر سوف يقترب إميل أكثر فأكثر

من الطبيعة ومن البشر في نفس الوقت. لن تغيب عنه حقيقته الطبيعية الأولى : الحرية، وهو منكب على البحث عن الجسد السياسي الملائم لتلك الحرية الطبيعية. تلك «المدينة » التي لن تغتال الحرية، بل تظهرها في شكل جديد فقط لتحافظ عليها من العبودية. إن الرجوع الى حالة الطبيعة بقى حلما فقط. حلم جميل. إنه منبه، ينبه المواطن الحر الجديد من داخل ذاته حتى ينتبه ليكشف عن كل محاولة تريد مصادرة الحرية. وبما أنه لا يمكن استرداد «الحرية المفقودة » إلا في إطار المجتمع، كان من الضروري «بيداغوجيا » أن يتم البحث عن المجتمع المثالي والباحث (إميل) موجود في إطار الطبيعة. مسافر. حر.

لن يكون المسافر في هذه المرة وحيدا. ولن يحلم بل سيجمع السفر هذه المرة المعلم والتلميذ لأن أغراض السفر تربوية / بيداغوجية. أمّا الهدف فهو ابرام «العقد » أو «الميثاق الاجتماعي »: وذلك عبر التعرف على كيفية التواجد في المجتمع الحر أو كيفية خلقه. وذلك يتم عندما يتعرف المواطن على حقوقه وواجباته داخل ذلك المجتمع فالتربية تجري إلى هذه الغاية : وعي المواطن يقول روسو : «سوف نتوصل بفضل هذا البحث المتواصل إلى معرفة اجبات المواطن وحقوقه (19)». إنه بحث يجب أن تراود رغبة القيام به كلّ فرد. لأن السؤال الذي يجيب عليه هذا البحث هو سؤال عام إنّه : « ماذا يمكنني أن أفعل ؟ (20) ». وهو سؤال يطرحه إميل، ولا بد أن يطرحه كلّ مواطن حر، يريد أن يكون دائما كذلك، أن ينعتق من كلّ قيد غير القانون الذي وضعه. ولن يفوت روسو أن يذكر أن المقاييس التي سوف يستعملها المربي مع إميل في هذا البحث هي مقاييس «مبادئه في الحق السياسي» وهو يقصد نظرية عقده الاجتماعي هي المقياس. لذلك كان الملخص الذي قدمه روسو للعقد الاجتماعي، في نهايه كتاب «إميل» (ص 600 - ص 610) ملخصا دقيقا إلى حد بعيد (21).

لم يتعرض كتاب «إميل» في الملخص الذي قدمه للعقد الاجتماعي، إلى محتوى الكتاب الرابع من العقد، وذلك بالاضافة إلى محتويا أخرى أهملها توجد في الكتاب الثالث : موضوع الفكر الديني وقد استوفى روسو البحث فيه، في اعترافات كاهن سافوا. ومن هذه الزاوية لم تبق تربية إميل منقوصة. أمّا المسائل المهملة الاخرى فهي مسائل تقنية تتصل بدواليب السلطة ومؤسساتها، وبكيفية وضع هذه المؤسسات وبأساليب الوقاية من تجاوز الحكومة لنفوذها. لكن الغريب في هذا الكتاب الخامس من «إميل» هو تلك المفارقة الموجودة بين المواضيع المطروحة للدرس والمكان الذي تقع فيه دراستها.

ان هذه المواضيع تهم الحياة السياسية. ولا توجد أغلب دواليبها ومؤسساتها عادة إلا في المدن وخاصة منها العواصم، ومع ذلك فإنّ روسو يرى أن البحث في هذه المسائل يكون أنجع عندما يجري في الريف. مثلما يؤكد هذا النص : «يجب أن ندرس عبقرية أمة وعاداتها وأخلاقها في القرى النائية حيث يوجد أقل ما يمكن من الحركة ومن التجارة، وحيث يسافر الأجانب أقل ما يمكن وحيث يتنقل السكان أقل ما يمكن أيضا وتنتقل بينهم الثروات وتتغير أحوالهم أقل ما يمكن (22)». هكذا يربي روسو أميل لمواجهة حركية الحياة السياسية وهو في إطار لا يعرف الا القليل من الحركية. إطار بعيد جدا عن الفعل السياسي وعن مؤامرات القصور وصراعات التكتلات السياسية التي يعرفها روسو حق المعرفة كيف لإميل ان يواجه كلّ ذلك وهو لم يُربَّ الا على الطاعة. ولم يسمح له سوى بان يطيع. وكان ذلك حتى في اختيار صوفي زوجة. ولا يقف روسو عند ذلك بل إنه يوصيه أن يكون انموذجا وقدوة يتعلم عنه الغير الحيا ويقول : «كن انموذجا (للناس) فيستفيدون منك ومن سيرتك الانموذجية اكثر مما يستفيدون من كلّ كتبنا (23)». كذلك بالاضطلاع بمهام القيادة السياسية اذا إقتضى الأمر، فهو يقول مخاطبا «إميل» : «إذا ناداك الأمير أو الدولة إلى خدمة الوطن، آترك كلّ شيء وآذهب لتقوم، في المكان الذي تعين فيه، بمهمة المواطن الشريفة (24) ». والغريب ي كلّ ذلك هو أن روسو يعلم كلّ العلم أن إميل لن يقدر على القيام بتلك المهام التي يدعى - روسو - أنه هيأه لها. ويأتي آعتراف روسو «بقصور» إميل في مناسبتين : وردت الاولى في الصفحات الأخيرة من الكتاب «إميل». وذلك بمناسبة سوء تفاهم طرأ بين إميل وصوفي جعل إميل ينفعل. فكان حكم روسو عليه حادا كما يظهر من قوله : «لكن إميل غبيّ جدا، فلم يفهم شيئا على الاطلاق (25)» من موقف صوفي وهي المرأة التي تكاد أن تكون أمية حسب تصوير روسو لها.

أمّا المناسبة الثانية التي آعترف فيها روسو بقصور إميل فقد نقلها مرني في هذا النص : «من بين الظرفاء الذين عرفناهم، كان السيد موغارت ولا شك من بين أكثرهم غرابة واكثرهم إثارة للسخرية. إنه إبن رجل أعمال قديم من رجال الأمير، وهو معجب جدا بجان جاك روسو، تربي [هوغارت الإبن] على مبادئ فيلسوفنا، وكان يدعى إميل مثل بطل فيلسوف جينيف ... إننا لا نتصور طرفة الغباء ومثال العجز اللذين انتجتهما هذه التربية... وعندما كان جان جاك بمدينة استرازبورغ حيث التجأ إثر طرده من أرض بيرن فآحتمى بمنزل السيد هوغارت الاب، حدثه هذا الأخير عن إميل بحماس فياض وأضاف أنه ربّى إبنه وفق مبادئه. فقال روسو : «إني آسف لك يا سيدي وآسف اكثر على ابنك» ولم

يخطئ الفيلسوف. فقد أصبح هذا الإبن بسيطا وأبله يحدثنا دائما عن الطبيعة مستعملا الفاظا يحمر لها الوجه (26)».

لقد أجمع الكثير من الفلاسفة ومن المختصين في مسائل التربية على فشل نظرية التربية التي طلع بها روسو على القرن الثامن عشر وقد ذكر د. مروني الكثير من هذه الشهادات. لكن لا يسعنا الا أن نعترف - وذلك طبعا بعد الشهادة بهذا الفشل الذريع الذي لقيه كتاب «إميل» - بجانب الابداع عند روسو في مجال التربية. فقد اكتشف الطفوله، فحرر الطفل من التصورات «الكهولية» التي كانت لدى المربين عموما. فكان نداؤه مسموعا ولا يزال وهو أن نترك الطفل يعيش طفولته فلا نجعل منه طفلا / كهلا قبل الأوان. فضلا على الثورة التي ساهم فيها روسو في ما يتعلق باعادة النظر في برامج التعليم في القرن الثامن عشر. وبالإضافة الى ذلك تمثل اعترافات كاهن سافوا أروع ما أنتج الفكر الانساني من نقد للفكر المتعصب، نقد أتى على لسان كاهن.

يبقى إذا كتاب «إميل» - في إعتقادنا - كتاب الطبيعة أي كتاب نداء الحرية وكتاب التسامح. فهو وان لم ينجح في تربية انسان العقد الاجتماعي، ذلك الانسان الذي سوف يؤسس الميثاق الاجتماعي، الا أنه كان صرخة في وجه الطغيان. ان زروع ما ورد في كتاب «إميل» هو النقد، اي جانبه السلبي. فالتربية السلبية هي تربية إيجابية لانها وعي بسلبيات المجتمع الظالم، ووعي بضرورة تحرير الانسان انطلاقا من تحرير الاطفال من جهل الكهول. ليس إميل انسانا، انه حلم بالانسان، حلم يحمل في داخله ما يحمل الحلم من ثورة ومن مكبوت ومن مسكوت عنه. انه حلم نسي قول أفلاطون ان الانسان الحر لا يربي كما يُرَبَّى العبيد. وإميل عبد لروسو، وحلمه الذي حمّله كل إستيهاماته فكان ملحمة بين الطبيعة والحياة المدنية رهانها الكبير هو الانسان.

الهـــوامـــش

1) J. ChATEAU, : " *Les grands pédagogues*" Paris. P.U.F. 1966.. P.171.

2) J. ChATEAU . op. : " cit F. .... p.p. 172-176.

3) *Ibid* ; pp. 172-185.

4) J.J. Rousseau " *EMILE*" , LIV.V. P, 600 et 1......

5) J. CHATEAU. *op.cit.* P.173.

6) J.J. ROUSSEAU "*Discours sur l'origine et les fondements parmi les hommes*". Paris, Gallimard. 1975. p45.

POLIN Raymond : "la politique de la solitude "; Paris ; Sirey . PP, 39-40. (7

J. ChATEAU *les Grands pédagogues* Op.cit p, 146. (8

D. Mornet, *Rousseau*, Hatier, Paris 1950; p.146. (9

Lettre à Christophe de Beaumont of in *EMILE*, extraits classiques Larousse, I, p. 9(10 note 1,

KANT. E. "*Reflexion sur l'éducation*". Paris, VRIN, 1984 Traduction, (11 introduction et notes de A. Philoninko. Kant, Repris in "*ROUSSEAU*" de D. Mornet, Hatier, Paris 1950 ; p.129.

12) أنظر MORNET, D. *op.cit.* 1950, pp. 132-133. يقترب مبدأ التربية السلبية من النظريات البيداغوجية المعاصرة. فكلاهما يقول بمراحل تتكون منها نفسية الطفل، يُقابل كل واحدة منها ضرب معين من «المعرفة» كما تتميز هذه التربية بسكوتها عن «المسألة الدينية»، التي سيعرضها كاهنسافوا بكامل الدقة.

13) ROUSSEAU J.J. "Emile" ... Paris, Garnier 1966. p. 364. ليست الفلسفة هي الطريق المؤدية الى الحقيقة (هنا يبتعد روسو عن الديكارتية)، ذلك لما يشوبها من سلبيات كثيرة. فقد رأى روسو من غرور الفلاسفة ومن ادعائهم وكبريائهم ووثوقيتهم وسخرهم من بعضهم البعض ما جعله ينفر نهجهم ويولّى عنه. ليست الحقيقة اذن هي مطلب الفلاسفة، ولا هي كذلك غاية لبحثهم، بل ان كلّ ما يرومونه هو تأسيس أنساق فلسفيّة خاصّة يتباهون بها ، حتى وان كان ذلك على حساب الحقيقة.

ROUSSEAU. *EMILE* ... pp. 352-353. (14

15) (16) (17) MORNET- "ROUSSEAU" ....p. 141. ولا يسعنا هنا الا ان نلاحظ ان أهم ما منعه روسو عن المرأة هو التعليم أو التربية الفكرية. فيكون بذلك الكتاب الخامس من «اميل» صدى في هذا المستوى المتعلق بالمرأة، لمسرحية موليار «النساء العالمات». والحال ان النصف الثاني من القرن السابع عشر قد عرف بفرنسا ظهور تيارات تدافع على حق المرأة في التعليم. لقد بقي اذا روسو في هذا المستوى أسيرَ آراء عصره الايديولوجية وخاصة منها تلك الاراء البالية التي تتعلق بالمراة وهي آراء موروثة عن القرن السابق. ذلك ما جعل موني يقول : «لن نركز على الكتاب V لان روسو في هذا الكتاب يبدو متخلفا تماما عن عصره بحيث لن يحضى بمن يصغي اليه .

18) فهو يكتب : «لم افكر ابدا، ولم زوجد ابدا، ولم احيا ابدا ولم اكن ابدا أنا كما فعلت ان صح هذا التعبير الا في اثناء الاسفار التي قمت بها وحيدا، ماشيا على وجلي . يملك المشي شيئا يحي افكاري ويحركها : فانا لا اقدر تقريبا على التفكير عندما ابقى جالسا. يجب ان يكون جسمي في حركة دائمة حتـى يتحرك عقلـي
J.J. ROUSSEAU : *Les confessions*, L IV; in *EMILE* extraits, *op.cit.* p. 93.

19) J.J. ROUSSEAU "*EMILE*" .....p. 610.

20) J.J. ROUSSEAU "*EMILE*"...... p.600.

21) حتى أن فقرات هذا الملخص تقابل تقريبا ومع إختلاف طفيف جدا- فصول «العقد الاجتماعي» وذلك من حيث المواضيع المطروقة طبعا. وهو مانبينه في هذا الكشف :

* حال الطبيعة واصل السلطة إميل ص 601 ف 2 *العقد* كـ1. فصول 1 - 5.

* الاسرة : سلطة الأب لا تبرر السلطة السياسيّة : *إميل ص 601* آخر فقرة *العقد :* كـ1، فصل 1.

* العبودية لا تؤسس السلطة السياسية. *إميل* ص 602. ف 4 *العقد*، كـ 1، فصل 4.

* ضرورة الميثاق. *إميل*، ص 603. فقرات 1 - 3 *العقد*، كتاب 1، فصل 5. والملاحظ أن روسو يضع نفس الفقرة في الكتابين دون تغييرها.

* السلطان وانحلال العقد . إميل ص 604، فـ1و2 *العقد*، كـ 1، فصل7.

* الحرية والملكية : *إميل* ص 604 ف 4 و 5 *العقد*، كـ1 فصل 8 و 9.

* القانون : *إميل* ص 605 *العقد*، الكتاب 2 فصل 2 و 6.

* السيادة : *إميل*، ص 606 ف 1 *العقد*، كـ2 فصول 1 - 5.

* القضاء والحكومات : *إميل* ص 606 ص 607 *العقد*، كـ3، فصل2.

*الديمقراطية : *إميل* ص 610 ف 2 و3 - العقد، كـ3، فصول 4، 5، 6.

* الحكومات، وأحسنها : *إميل* ص 610 ف 2 و3 *العقد*، كـ3. فصول 7 و9.

22) J.J. ROUSSEAU, "*EMILE*". P. 613.

23) J.J. ROUSSEAU, "*EMILE*". P. 621.

24) J.J. ROUSSEAU, "*EMILE*". P. 626.

25) ROUSSEAU J.J. "*EMILE*"; *op.cit.* T2, p.88 cite le